النفحة الأولى: كيف نستقبل رَمَضَانَ

أيها النـاس:

لقد جاءكم شهر رَمَضَانَ، شهر الخير والبر والإحسان، وأطلت عليكم ليالي الجود والغفران، وأهلّ عليكم هلاله المبارك الذي طالما تاقت له النفوس، وهفت إليه الأرواح، وسكبت لمقدمه العبرات، هلال مبارك كان النبي ﷺ ينتظره بفارغ الصبر والترقب، حتى إذا ما انبثق وظهر في طرف السماء استبشر ﷺ قائلاً: «**اللَّهم أهلَّه علينا باليُمن والإيمان، والسلامة والإسلام، هلال خير ورشد، ربي وربك الله**»(1).

إنه رَمَضَانَ يا مسلمون، الذي سيهذب النفوس بعدما تكدرت، ويصقل المعادن بعدما تلوثت، ويعيد للقلوب نفحاتها بعدما خفت نورها، وانطمست معالمها بنزعات الحمأ المسنون، ونزوات الهوى والمجون.

ما أجمله من شهر خصه الله من بين الشهور، ورفع قدره على كرّ الدهور، كيف لا وهو شهر الطاعات والقربات، كيف لا وهو موسم العبادات، كيف لا وهو شهر تكفير الخطايا والسيئات، كيف لا وهو شهر العتق من النيران، وقد بيّن النبي ﷺ فضائل هذا الشهر المبارك، وحدد بعض مزاياه، كما في الحديث الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه وغيره، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «**أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة**

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، 3/ 171، رقم: (888)، والحاكم في المستدرك، 4/ 317، رقم: (7767).

كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزداد فيه رزق المؤمن، مَن فطّر فيه صائماً، كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء»، قالوا: ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال: «**يعطي اللهﷻ هذا الثواب لمن فطر صائماً على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، مَن خفّف عن مملوكه فيه غفر اللهﷻ له وأعتقه من النار واستكثروا فيه من أربع خصال، خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم، فشهادة أن لا إله إلّا اللهﷻ وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما، فتسألون اللهﷻ الجنة وتعوذون به من النار، ومَن سقى فيه صائماً سقاه اللهﷻ من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة**»[1].

اخي المسلـــم:

أيّ بشرى بعد هذه، وأيّ خير بعد هذا، شهر عظيم مبارك سيحلّ عما قريب في رحابك، خاشع الأنفاس، زاكي النفحات، فهل استعددت للقائه؟ وهل حمدت ربك أن أمدّ في عمرك، وبسط لك في أجلك حتى أدركت رَمَضَانَ، وكم كان معك من إخوان وأصدقاء وخلان فيما مضى، فما أدركوا رَمَضَانَ، طواهم القدر طياً وأصبحوا نسياً منسياً، تحت التراب دفنوا، وفي حنايا الرغام كفنوا، يتمنى الواحد منهم لو كان معك ليشاركك ركعة أو ختمة أو حتى دعوة ولكن... وكم تكون أخي المسلم، رفيع المقام عند الملك الديان، يوم تستقبل رَمَضَانَ بتوبة صادقة وإنابة صافية، وتنضم إلى قافلة التائبين للّه، العائدين إلى كنفه ورضوانه، فتتحسّر ألماً على ما مضى، وتشمر جهداً على ما أتى، وتعلن الدينونة والولاء والخضوع لغافر الزلات، ومقيل العثرات).

وهذا الشهر المبارك فرصة ثمينة لاغتنام الأجور والحسنات، وولوج أعلى

(1) رواه ابن خزيمة في صحيحه، 3/ 191، رقم: (1887)، ورواه الهيثمي في الزوائد، 1/ 412، رقم: (321)، والبيهقي في شعب الإيمان، 3/ 305، رقم: (3608) وغيرهم.

الجنات، ففي الحديث الذي رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رَمَضَانُ فتحت أبواب الجنة، وأغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»[1]، فلتبشر بخير أيها المؤمن، فإن الفردوس قد ازيّنت لك، وباب الريان ينتظرك، وأبواب جهنم قد وصّدت، وحممها قد غيّبت، والشياطين قد كبلت، لماذا كل هذا؟ كرامة لك يا مسلم، ورفعة في درجاتك يا موحد، فهلاّ مرّغت الجبين ذلاً للّه، وأقبلت عليه بقلب خاشع منكسر، ونفس توّاقة لما عنده من الخير العميم والفضل الجزيل.

ولنعلم أن الصيام كما فرضه علينا ربنا ﷻ، كذلك فرضه على ما سلف من الأمم السابقة، لعظيم شأنه في تربية الأجيال، وتغيير الأحوال، والرقي بأحوال الأمم والمجتمعات، وفرضُه على من قبلنا ثم علينا دليل اطّراد صلاحه، ووفرة عطائه، وتنويه لإنهاض همم المسلمين في استقباله وهم على أهبة الاستعداد للتنافس في العبادات، والتسابق في مسرح الخيرات، كي لا يتميز السابقون علينا بعلوّ الهمة وكثرة العبادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البَقَرَة: 183].

والصوم والد لأنه فرض على الأمم السابقة، ومولّد لأنه يولّد ويورث في النفوس التقوى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ولما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى، فهو يردع عن الأشر والبطر، ويهون لذات الدنيا ومتعها، ويروض نفوس الأفراد، الذين هم مفردات المجتمعات وركائزه الأساسية، حتى يصلح المجتمع، والصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، ومجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها واحتمال ضغطها وثقلها، وهذه العناصر كلها لازمة كي يتكامل التصور الدقيق للصوم، والمفهوم الأصيل لمستلزماته فيما بعد، وهو سر بين العبد وربه كما جاء في الحديث القدسي: «**كل عمل بن آدم له إلاّ الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة وإذا كان يوم صوم**

(1) رواه مسلم، 2/ 758، رقم: (1079)، وأحمد في المسند، 2/ 357، رقم: (8669)، والدارمي، 2/ 41، رقم: (1775).

أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[1].

ثم ينبغي علينا أيها الأحباب الكرام أن نعلم أن من أجلّ الأعمال التي ينبغي أن نستقبل بها هذا الوافد الكريم، والضيف العزيز، كثرة قراءة القرآن الكريم، لأن رَمَضَانَ هو شهر القرآن، ولقد وصف ربنا عَزَّوَجَلَّ رَمَضَانَ بأنه شهر القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: 185]، وما أدق تعبير الحق عندما يصف القرآن بأنه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ فالهداية التامة المطلقة فيه، سواء في العقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تحرر الطاقات البشرية وتطلقها للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون ونواميس الفطرة في تناسق واتساق، أو في ميدان العبادة عبد ما تتم الموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشدد التكاليف على النفس البشرية حتى لا تمل وتنفر، ولا تسهل عليها حتى لا تستهتر وتتسيب، أو في التنسيق الدقيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين أحاسيسه ومنعطفاته الداخلية وما يساورها من مد وجزر وأخذ ورد، وبين سلوكياته الظاهرة وتصرفاته الواضحة، كل ذلك يتشابك تشابكاً وثيقاً كالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ليرسم معالم الهداية القرآنية.

ولقد ندبنا رسولنا ﷺ للإكثار من قراءة القرآن على وجه العموم، وأكد ذلك في شهر رَمَضَانَ، ولا أدلّ على ذلك من أن النبي ﷺ نفسه كان يلتقي بجبريل فيدارسه القرآن فيه كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رَمَضَانَ حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رَمَضَانَ فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من

(1) رواه البخاري، 2/ 673، رقم: (1805)، ومسلم، 2/ 807، رقم: (1151)، وأحمد، 2/ 356، رقم: (8659).

الريح المرسلة)[1].

وهكذا كان حال السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا إذا دخل عليهم رَمَضَانْ فرَّغوا جل وقتهم لتلاوة القرآن، فيتدارسونه، ويقومون به الليل، ويزينون به الحلق والمجالس، ويجعلونه مائدة ربانية يحلقون حولها، وينهلون من معينها، حتى إن الإمام الزهري يقول: إذا دخل رَمَضَانْ فإنما هو لتلاوة القرآن... ويقول أبو موسى الأشعري: إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنه من اتبع القرآن هبط به رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن قذف به في النار.

ومما يجب علينا عمله ونحن نستقبل رَمَضَانْ أن نحافظ على الصلوات في جماعة مع المسلمين، سواء صلاة القيام (التراويح) أو باقي الصلوات، وأن لا ننساق وراء الملهيات والمكدرات التي كثرت في عصرنا، كمتابعة الأفلام والمسلسلات على حساب صلاة القيام، فكم في الناس مع كل أسف يحرص على متابعة مهرجان تلفزيوني معين، أو مسلسل ما، فيترك الإمام ومن معه في المسجد وينصرف بعد أداء المفروضة إلى هذه الملهيات، ومنهم لا يصلي سوى ركعتين؟ ولو تذوق هؤلاء معاني القيام واستشعروا حلاوته، ولو أنهم رمقوا حال العابدين في صلاة القيام، وما هم عليه من تضرع ونحيب ودعاء وتسبيح، قد تجاوب معه الملكوت الأعلى لما فعلوا هذا.

يقول ﷺ كما جاء في الصحيحين: **«مَن قام رَمَضَانْ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»**[2]، ويقول ﷺ أيضاً: **«مَن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»**[3].

ومَن منا لم تثقل كاهله الذنوب والخطايا؟ أليس من الواجب علينا أن نغتنم

(1) رواه البخاري، 3/ 1177، رقم: (3048)، ومسلم، 4/ 1803، رقم: (2308).
(2) رواه البخاري، 1/ 22، رقم: (37)، ومسلم، 1/ 523، رقم: (759).
(3) رواه البخاري، 2/ 672، رقم: (1802).

فرصة القيام ليغفر الله ما تقدم من ذنوبنا، وبكل هذه السهولة يغفر الله ذنوبنا؟ نعم ولم لا، وهو غني عن طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، لكن بشرط عندما نتلبس بالعبادة والقيام أن تكون محفوفة بنشوة الإيمان والاحتساب، وأن لا تكون ضرباً من ضروب التقليد والعادة التي جرى عليها بعض الناس، فإن ذلك يفرغ الصيام والقيام من حلاوة المناجاة للّه، ومتعة المناداة، ثم أن نحرص على قيام العشر الأخير وذلك تحرياً لليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، والتي تصافحنا فيها الملائكة ونصافح الملائكة، وتعتق فيها رقابنا من النار.

وفي السياق نفسه ينبغي علينا ونحن نستقبل رَمَضَانَ، أن نحافظ على صلاة الجماعة في المسجد مع المسلمين، لأن صلاة الجماعة تضفي على المؤمنين رونقاً خاصاً من التضامن والتكاتف والتماسك، ذلك لأنهم يقفون في صف واحد، وعلى صعيد مشترك من العبودية والخضوع للّه تبارك وتعالى، علاوة على ذلك فإنها سبب مغفرة الذنوب والآثام كما قال الحبيب ﷺ: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»**[1].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: (مَن سره أن يلقى الله غداً مسلماً، فليحافظ على هؤلاء الصلوات، حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلّا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة ويحط بها عنه سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلّا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف)[2].

(1) رواه مسلم، 1/ 219، رقم: (251).
(2) رواه مسلم، 1/ 453، رقم: (654).

وعلينا أن نستقبل رَمَضَانَ بهمة عالية في نشر وتبليغ دين الله تبارك وتعالى، خاصة وأن عواصف الهوى، وعوائق الدعوة والعقبات التي تواجهها، تهدأ وتنحسر في رَمَضَانَ، والشياطين من أخطر العثرات في وجه الدعاة، وهي تكبل وتصفد في رَمَضَانَ، مما يتيح للمسلم أن ينشط في بث نفحات الهدى وشارات الحق. . . كما أن النفوس تكون في رَمَضَانَ متهيئة ومؤهلة لاستقبال روافد النور ووافدات السماء أكثر من غيره في أيام السنة، ومن هنا كان لزاماً عليكم أيها الدعاة الربانيون أن تستأنفوا عمل الدعوة وتبليغ رسالة الخير والنور، لتحيوا الأمل في النفوس، وتعترضوا روح الهزيمة التي توارثها المسلمون في عشرات العقود الأخيرة، وتهيلوا التراب فوق الخلافات العقيمة التي تثار هنا وهناك بقصد أو بدون قصد في صف الأمة لتردم، ويكون اتباع الحق هو المحور في سلوكياتنا، لأن شرف هذه الأمة يجيء من توافق هواها مع هدايات الله، ومن تطابق عملها مع أوامر الحق ونواهيه.

ولنعلم أن جهاز الدعوة الحق الذي قام عبر عصور الازدهار في تاريخنا برأب الصدع وتوحيد الكلمة وجمع القلوب، ينبغي أن يستأنف نشاطه بكل الوسائل والأساليب الحديثة المعاصرة.

ومن أبرز أعمال الهدى والإيمان التي نستقبل بها رَمَضَانَ، أن نكون سبَّاقين لفعل الخيرات بشتَّى صورها وأشكالها، ومن أهمها: صلة الأرحام، والصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، ذلكم لأن هذا الشهر هو شهر الجود والبذل والعطاء، ولقد كان ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رَمَضَانَ، ولَكَم أمر ﷺ بالتصدق على المحتاجين والمساكين، ففي صحيح مسلم يقول ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزاً، وما تواضع أحد للّه إلّا رفعه الله** عَزَّوَجَلَّ»[1].

فالصدقة تطهر نفس المؤمن وماله، وتحفظ عليه النعمة، وتدفع عنه الآفات والمصائب وتقيه مصارع السوء، وتكون حارساً عظيماً على نفسه وأهله، وبالصدقة

(1) رواه مسلم، 1/ 453، رقم: (655).

تأتلف القلوب وتزول الضغائن، وتسل السخائم، حتى يستشعر المؤمنون حلاوة الإسلام الذي دفع الغني لا للتصدق على الفقير، إنما لإعادة له حقه الذي فرضه ربنا سبحانه في مال الغني، فلنحسن إلى فقرائنا، ولننتشلهم من وهدة الذل والمسألة، ولنشعرهم بالعزة والكرامة وحياة الشرفاء التي يريدها منا رَمَضَانَ.

فيا أيها الموحدون:

أقبل عليكم رَمَضَانَ، والخير والفضل كله معه، فأحسنوا جواره وإكرامه، ولا يغادرنكم هذا الضيف الكريم إلّا وقد غفر الله ذنوبكم، وأقال عثراتكم جدوا فيه واجتهدوا، توبوا فيه وارجعوا، أكثروا فيه من التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار وتلاوة القرآن، عسى الله أن يعتق رقابنا من النار إنه جواد كريم.

يا مَن طالت غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة، يا مَن دامت خسارته قد أقبلت أيام التجارة الرابحة، من لم يربح في هذا الشهر ففي أي وقت يربح؟ من لم يرحم في هذا الشهر ففي أي زمن يرحم؟

أتى رَمَضَانُ مزرعة العباد ... لتطهير القلوب من الفساد
فأدّ حقوقه قولاً وفعلاً ... وزادك فاتخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها ... تأوّه نادماً يوم الحصاد